الباب الأول

كيف بدأ الخلق ؟

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون) .

(٢٠ ، ٢١ العنكبوت)

obeikandl.com

obeikandl.com

كيف بدأ الخلق ؟

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) (٢٠ العنكبوت)

هذا هو السؤال .. وأى سؤال كان أولى بالمعرفة من هذا السؤال بالذات ؟ إنه سؤال البداية إذا أراد الإنسان أن يعرف البداية .. وإنه سؤال النهاية إذا أراد الإنسان أن يؤمن بالنهاية .. ومن عجب أن إجابة هذا السؤال يمكن أن تستغرق عمر الإنسان كله أيضًا من البداية حتى النهاية .. وهى إجابة لابد جامعة لكل ما يجب على الإنسان أن يعرفه من علوم الدنيا .. وعلوم الآخرة .. (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؟) والسؤال هنا يبدأ فيأمرنا بالسير فى الأرض .. السير وليس القعود أو اليأس أو الأخذ بالمعلوم السهل وعدم الجرى وراء المجاهيل .. (سيروا) ويالها من كلمة .. أين منها (ابحثوا) أو (تعلموا) أو (ارتحلوا) أو (اسألوا) .. إلخ إنه كلام الله .. وكفى .. (سيروا) فى كل عصر ومصر فالأرض هنا بمعنى المكان والزمان ثم يجىء أمر الله لنا أيضاً فى ذات السؤال (فانظروا) .. انظروا بكل ما لديكم من وسائل النظر والبحث والفكر .. انظروا بعقولكم .. انظروا بعدساتكم .. بمخابركم الحديثة .. بمواد الكيمياء .. بالغواصات .. بسفن الفضاء .. بل حتى ببصائركم وأفئدتكم .. (فانظروا) هكذا جاءت مطلقة غير مقيدة فيها الأمر بالمعرفة .. وفيها الأمر بالنظر تمهيدًا للإيمان وإعجازاً كلاميًّا وعلميًّا .. كيف بدأ الخلق ؟ وكيف بالذات .. وليس أين بدأ الخلق ؟ أو متى بدأ الخلق .. أو حتى لماذا بدأ الخلق ؟ بل كيف ؟.

وسبحانك يا خالق الأكوان .. والله إن الإنسان بعقله المحدود وجهده المكدود .. لا يملك أمام هذا السؤال غير السجود لخالق كل ما فى الوجود .. ومن أين يبدأ الإنسان .. وإلى أين ينتهى مع مثل هذا السؤال الجبار .. وكيف تكون مسيرة الإنسان معه حتى لو عرف له نقطة بداية ؟ فاللهم علمنا من علمك وأَنِرْ لنا طريقنا الديجور ... بما تهبه للطائعين من بصائر النور .. واللهم إنا باسمك نبدأ وإليك بما تعلمنا ننتهى .. فيسر علينا الصعاب .. وافتح لنا مغاليق الأبواب واكشف لنا عن طلاسم الإنسان كل نقاب .. إنك أنت الوهاب .. وعفواً يا عزيزى القارئ إذا نحن لم نعالج فى هذا الكتاب غير بعض ما يفتح به الله علينا فى (بعض) جوانب خلق الإنسان .. الإنسان بالذات .. وليس الخلق فسبحان المحيط بالخلق .. وعوالمه .. وهل نحن إلا عباد من بنى الإنسان ؟ الإنسان الذى يحيط به من كل جانب .. الجهل .. والغفلة والنسيان ؟ أو يعلمه من علمه الرحمن .. وهو نعم المولى المستعان .

ومهلا أخى الإنسان ، فإننا لا نكاد نبدأ أول خطوة فى الإجابة حتى يخرج علينا سؤال جديد :

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً[1]) وهو سؤال يدفعنا من جديد إلى ما قبل البداية .. حين لم يكن الإنسان شيئاً مذكوراً . فمتى يا رب كان ذلك الحين ؟ وهل كان الإنسان فيه موجودًا أو لا ؟ أو أنه كان موجودًا ولكنه لم يكن شيئًا مذكورًا ؟ وما هو يا ترى معنى (مذكورًا) فى هذا السؤال ؟

وتتوالى الأسئلة وتتتابع : « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ . . مم خلق يارب .. من تراب ؟ من طين لازب ؟ من حمأ مسنون ؟ من صلصال كالفخار ؟ من

(١) الإنسان/١ .

نطفة أمشاج ؟ من ماء دافق ؟ من منىّ يمنى ؟ وما هى مراحل وأطوار خلقه يا ترى ؟ وكيف يحمل ذريته ؟ وكيف يتحدد عمره ورزقه .. إلخ ؟ وما هى الظلمات الثلاث التى تحتويه جنيناً ؟ وما هى النطفة والعلقة والمضغة ؟ ومتى وكيف تحل بها الروح ؟ وما هى الروح ؟ وهنا تتداعى الأسئلة وتتزاحم .. فالروح عالم مثير مثير .. مثلا السؤال عن قدمها وحدوثها .. وماذا يقول الأقدمون والمحدثون عنها ؟ وما صلة الروح بالنفس والعقل ؟ وكيف كانت فكرة الروح عند الإنسان البدائى ؟ وكيف انتقل من فكرة الروح إلى خلود الروح ؟ ثم كيف انحرف إلى تعبد أرواح الأجداد ؟ وهل امتد ذلك إلى الجمادات ؟ وكيف نظر الفراعنة إلى الروح ؟ وماذا قال الإغريق والرومان والهندوس عنها ؟.

ثم ننتقل إلى الروح فى الفكر العربى والإسلامى فماذا قال الفارابى ؟ وابن سينا ؟ والغزالى ؟ وعلماؤنا المعاصرون ؟

ثم تتفرع الأسئلة وتتشعب :

فما مفهوم كلمة الروح فى اللغة العربية ؟ وما حديث القرآن عنها ؟ وهل الروح والنفس شىء واحد أو شيئان ؟ وما الفرق بينهما ؟ .. بل ما مراتب الروح ؟ وما أنواع تعلقها بالبدن ؟ وهل الروح جسد أولا ؟ ولماذا لا ؟ وهل الروح سبب الحياة ؟ وما معنى ذلك ؟ وما هى الدلائل على خلق الروح ؟ وهل سبقت البدن فى الخلق أو لحقت به ؟ وهل هى جسم متحيز ؟ ثم هل تموت الروح أولا ؟ وأين مستقرها بعد الموت ؟ وكيف تكون حالتها بعد مفارقتها للجسد ؟ .

ويمتد الحديث إلى الحياة بعد الموت والبعث والخلود وعن الاتصال بين أرواح الأحياء والأموات .. وتحضير الأرواح .. ثم حديث آخر عن النفس أيضا .. فما حقيقة النفس ؟ وما أنواعها ؟ واحدة أو ثلاث أو أكثر ؟ وكم

عدد دورها ؟ وما معنى موت النفس ؟

وبعد .. عزيزى القارئ الإنسان :

هذا عرض لبعض عناصر الكتاب أردنا أن نضعه بين يديك .. فقط لترى كم هو حق ما نقول به من أن العلم أوسع من أن يحاط به حتى لو كان علم الإنسان عن روحه ونفسه.. فسبحان الذى علم الإنسان ما لم يعلم ..

ما قبل خلق آدم

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورًا) (١ الإنسان)

هل : بمعنى قد . قاله الكسائى والفراء وأبو عبيدة[٢] وحكى عن سيبويه . وهى جملة خبرية بمعنى قد أتى . والإنسان هو آدم عليه السلام . وحين من الدهر : قال ابن عباس فى رواية أبى صالح : أربعون سنة مرت به قبل أن ينفخ فيه الروح وهو ملقى بين مكة والطائف .

وعن ابن عباس أيضًا وفى رواية الضحاك : أنه خلق من طين فأقام أربعين سنة ، ثم من حمأ مسنون أربعين سنة ، من صلصال أربعين سنة ، فتم خلقه بعد مائة وعشرين سنة ، وزاد ابن مسعود فقال : أقام وهو من تراب أربعين سنة فتم خلقه بعد مائة وستين سنة ثم نفخ فيه الروح . وقيل الحين المذكور ها هنا لا يعرف مقداره .

وعن ابن عباس أيضًا حكاه الماوردى : لم يكن شيئاً مذكوراً : قال الضحاك عن ابن عباس أى كان جسدًا مصورًا ترابًا وطينًا لا يذكر ولا يعرف

(٢) تفسير القرطبى ص ٦٩٠٩ ط دار الشعب/القاهرة .

ولا يدرى ما اسمه ولا ما يراد به ثم نفخ فيه الروح فصار مذكورًا قاله الفراء وقطرب وثعلب . وقال يحيى بن سلام : لم يكن شيئًا مذكورًا فى الخلق وإن كان عند الله شيئًا مذكورًا . وقيل ليس هذا الذكر بمعنى الإخبار فإن أخبار الرب عن الكائنات قديم ، بل هذا الذكر بمعنى الخطر والشرف والقدر . تقول فلان مذكور أى له شرف وقدر . وقد قال تعالى : (وإنه لذكر لك ولقومك) أى قد أتى على الإنسان حين لم يكن له قدر عند الخليقة . ثم لما عرف الله الملائكة أنه جعل آدم خليفة وحمله الأمانة التى عجز عنها السموات والأرض والجبال ظهر فضله على الكل فصار مذكورًا .

قال القشيرى : وعلى الجملة ماكان مذكورًا للخلق وإن كان مذكورًا لله . وحكى محمد بن الجهم عن الفراء : (لم يكن شيئًا مذكورًا) قال : كان شيئًا ولم يكن مذكورًا . وقال قوم : النفى يرجع إلى الشىء أى قد مضى مدد من الدهر وآدم لم يكن شيئا يذكر فى الخليقة لأنه آخر ما خلقه من أصناف الخليقة والمعدوم ليس بشىء حتى يأتى عليه الحين . والمعنى قد مضت عليه أزمنة وماكان آدم شيئًا ولا مخلوقًا ولا مذكورًا لأحد من الخليقة[٣] . وهذا معنى قول قتادة ومقاتل . قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليقةٍ لله جل ثناؤه خليقته كانت بعد الإنسان . وقال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير وتقديره : هل أتى حين من الدهر لم يكن الإنسان شيئًا مذكورًا . لأنه خلقه بعد خلق الحيوان كله . ولم يخلق بعده حيوانًا . وقد قيل : (الإنسان) فى قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين) عنى به الجنس من ذرية آدم وإن الحين تسعة أشهر مدة حمل الإنسان فى بطن أمه . (لم يكن شيئًا مذكورًا) إذ كان علقة ومضغة لأنه فى هذه الحالة جماد لا خطر له . وقال أبو بكر رضى الله عنه لما قرأ هذه

(٣) جدير بالذكر أن الجن والملائكة وغيرها من الخليقة سبقت خلق آدم .

الآية : ليتها تمت فلا نبتلى أى ليت المدة التى أتت على آدم لم تكن شيئًا مذكورًا تمت على ذلك فلا يلد ولا يبتلى أولاده . وسمع عمر بن الخطاب رضى عنه رجلا يقرأ الآية السابقة . فقال : « ليتها تمت » .

بدء المخلوقات وأوائل الكائنات الكلية(٤)

* أول ما خلق الله تعالى القلم . قال له اكتب فقال يارب ما أكتب ؟ قال : اكتب علمى فى خلقى إلى يوم القيامة فجرى القلم بما أمره به سبحانه فافتقر إلى موجده وبارئه تعالى وتقدس (ذكره الشيخ فى الدرة البيضاء) .

* أول ما خلق الله تعالى العقل يعنى بعد القلم واللوح المحفوظ . خلق العقل وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال وعزتى وجلالى ما خلقت أجل منك شيئًا ، بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب (الغزالى فى خبر الملوك) .

* أول ما خلق لله من الأشياء النباتية اليراع أى القصب . ثم خلق القلم من ذلك اليراع ثم قال : اكتب ما يكون إلى يوم القيامة (السيوطى فى الهيئة السنية) .

* أول المخاطبين هو أوّل المخلوقين وهو العقل الهيولى النورانى . ولما كان لا نظير له فى المخترعات الأوليات كانت مخاطبة الحق له بما فيه من معانى الحروف

---

(٤) المصدر : محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر : تأليف العلامة الشيخ علاء الدين على دده السكتوارى البسينوى . فرغ من تأليفه فى شهر رجب سنة ٩٩٨ . طبعة أولى المطبعة العامرية الشرقية سنة ١٣١١ هـ . وهو تلخيص كتاب السيوطى فى معرفة الأوائل وعن غيره من الكتب كتحفة الألباب وتاريخ الخلفاء وسير الملوك وكنز الأسرار . . إلخ .

فى سر العقل ألِفًا واحدًا لأنه حقيقة مجمع الحروف بالقوة فسمع أسرار العلوم بحقائق الحروف قبل وجودها فى عالم الأسماء فهو صاحب رمز وإشارة وإدراك (من شمس المعارف).

* أول ما خلق الله تعالى العقل ثم النفس ثم الطبيعة ثم الهيولى ثم الجسم الكلى ثم الأفلاك ثم الأركان ثم المولدات وهى المعادن والنبات والحيوان وآخر موجود الإنسان .. وخلق الله الأرواح على مراتبها من مرتبة العقل إلى ما دونه (الدرة البيضاء).

* أول ما خلق الله تعالى يعنى من العناصر الكلية الجامعة ، قال ابن وهب : خلق الله تعالى أولا جوهرة مضيئة طينة خاتم الأنبياء وعنصر سيد الأصفياء محمد ﷺ كفضة خاتم ، ونظر فيها بالهيبة فذابت وصارت ماء وهو الذى استوى العرش عليه ثم تموج الماء واجتمع فى وسطه قطعة زبد فانفلقت أربع قطع فخلق من كل قطعة حرمًا حرم الكعبة والمدينة والقدس والكوفة وهو حرم رابع عند بعض المحققين وهو المروى عن على رضى الله عنه ولذا اتخذها على دار الخلافة وسيتخذها المهدى خليفة آخر الزمان ثم تلألأت الأرض من تلك الطينة فلما ركب آدم منها من طين تلألأت جبهته بنوره ثم نقل النور من صلبه إلى صلب طاهر حتى أخرجه من بين أبويه لم يلتقيا على سفاح قط كما ذكره فى الشفاء وغيره . قال الحافظ الدمشقى فى وصف آبائه بنوره ﷺ :

تنقّل أحمد نوراً عظيمًا تلألأ فى جباه الساجدينا
تنقل فيهم قرناً فقرنًا إلى أن جاء خير المرسلينا

* أول الأنبياء خلقًا سيدنا محمد ﷺ كما قال : كنت أول الأنبياء خلقًا وآخرهم بعثًا . وعن كعب الأحبار لما أراد الله تعالى أن يخلق جسد سيدنا محمد

ﷺ جاء سيدنا جبريل بقبضة نقية بيضاء من نور الأرض من موضع قبره ، وكانت تلك القبضة فى موضع الكعبة فغسلت فى أنهار الجنة وعجنتْ بماء الرحمة ، وطيف بها عوالم الملكوت حتى عرفت الملائكة اسمه ونعته قبل اسم آدم بألف عام ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين :

* أول ما خلق الله تعالى من الأجسام جوهرة تلألأت فكانت طينة سيدنا محمد ﷺ منها ونظر إليها بالهيبة فصارت ماء وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات ، ثم تموج الماء فخلق الأرض منه فكان يتلألأ نور الطينة النبوية لأهل السماء كالقمر لأهل الأرض ، ثم خلق من الأرض طينة آدم فكان يتلألأ نوره من جبهته ، وكان نوره ﷺ مع اسمه الشريف فى كل موضع من الجنة وعلى نحور الحور العين وجبين الملائكة وساق العرش وأبواب السموات ، وكان فى الأرض فى موضع قبره غالبًا على نور الشمس حتى انتقل إلى جبين آدم حين خلق أصول التواريخ .

* أوّل ما بدأ وسرى من حضرة الكون نور سيدنا محمد ﷺ وهو أنه لما قتل قابيل أخاه هابيل اغتم آدم بذلك فأمره الله تعالى أن يغشى زوجته وأوحى إليه قم فتطهر وتطيب وتوضأ وصل واغش زوجتك على طهارة ، فإنى مخرج منك نورى أجعله خاتم الأنبياء وخيار الخلفاء وأختم به الزمان ، فواقع آدم حواء عند ذلك فحملت لوقتها وأشرق نوره بجبينها فوضعت شيثا عليه السلام ثم انتقل نوره ﷺ من صلب طيب إلى طاهر أخرجه من بين أبويه لم يلتقيا على سفاح قط ﷺ ، كما أشار فى الحديث المشهور : أول ما خلق الله روحى أول ما خلق الله نورى قال أهل التحقيق لا شك أنه ﷺ مبدأ كل كمال ومنشأ كل خصال وله السبق والتقدم والفتح والختم ظاهرًا وباطنًا فى جميع الفضائل والكمالات .

وهذا حديث جامع من بدء خلق رسول الله ﷺ أخرجه العلماء مرويًّا عن

جابر الأنصارى رضى الله عنه حين سئل عن بدء خلقه فقال :

أول شيء خلقه الله تعالى نور نبيك يا جابر ، خلقه ثم خلق منه كل خير وخلق بعده كل شيء وحين خلقه أقامه قدامه فى مقام القرب اثنى عشر ألف سنة ، ثم قسمه أربعة أقسام فخلق العرش من قسم والكرسى من قسم وحملة العرش وخزنة الكرسى من قسم ، وأقام القسم الرابع فى مقام الحب اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أقسام فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم ، وأقام القسم الرابع فى مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أجزاء فخلق الملائكة من جزء وخلق الشمس والقمر من جزء والكواكب من جزء ، وأقام الجزء الرابع فى مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أجزاء فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء ، وأقام الجزء الرابع فى مقام الحياء إثنى عشر ألف سنة، ثم نظر الله تعالى فترشح النور عرقًا فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفًا وأربعة آلاف قطرة، فخلق الله من كل قطرة روح نبى ورسول، ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم نور أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسى من نورى، والكروبيون[1] والروحانيون من نورى، وملائكة السموات السبع من نورى، والجنة ومافيها من النعيم من نورى، والشمس والقمر والكواكب من نورى ، والشهداء والسعداء والصالحون من نتائج نورى ، ثم خلق الله اثنى عشر ألف حجاب فأقام النور وهو الجزء الرابع فى كل حجاب ألف سنة وهى مقامات العبودية وهى حجاب الكرامة والسعادة والهيبة والرحمة والرأفة والعلم والحلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين فعبد الله ذلك

---

(١) الملائكة الكروبيون : أقرب الملائكة إلى حملة العرش.

النورُ فى كل حجاب ألف سنة فلما خرج النور من الحجب ركبه الله فى الأرض فكان يضىء منه ما بين المشرق والمغرب كالسراج فى الليل المظلم ، ثم خلق الله تعالى آدم من الأرض وركب فيه النور فى جبينه ثم انتقل منه إلى شيث ، فكان بنتقل من طاهر إلى طيب ومن طيب إلى طاهر إلى أن وصل إلى صلب عبد الله ابن عبد المطلب ومنه إلى رحم أمى آمنة ، ثم أخرجنى إلى الدنيا فجعلنى سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين وقائد الغر المحجلين ، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر أخرجه الشيخ الأكبر وصنف كشف الكشاف فى شرح البردة وغيره من العلماء رحمهم الله فثبت بذلك أن جميع المكونات تكونت بإفاضة فيض نور الرسول ﷺ الذى هو القاسم المستفيض من الفيض الأول الأقدس .

وأخرج القاضى فى الشفاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ : لما خلق الله تعالى آدم أهبطنى فى صلبه إلى الأرض وجعلنى فى صلب نوح فى السفينة وقذف بى فى النار فى صلب إبراهيم ، ثم لم يزل ينقلنى فى الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجنى من بين أبوى لم يلتقيا على سفاح قط ، قال القاضى وإلى هذا أشار عمه العباس رضى الله عنه فى قصيدته الشريفة فى مدحه ﷺ .

من قبلها طبت فى الظلال وفى ... مستودع حيث يخصف الورق

ثم هبطت البلاد لا بشر ... أنت ولا مضغة ولا علق

بل نطفة تركب السفين وقد ... ألجم نسرًا وأهله الغرق

وردت نار الخليل مكتتمًا ... تجول فيها ولست تحترق

تنقل من صلب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق

* أول يوم خلقه الله يوم الأحد (السيوطى) .

* أول ابتداء خلق العالم كان فى يوم الأحد والفراغ فى يوم الجمعة وفيه نفخ

فى آدم الروح ، ثم خلقت حواء من آدم عليهما السلام وأسكنا الجنة ثلاث ساعات وهو ربع يوم من أيام الآخرة مائتا سنة وخمسون سنة من أعوام الدنيا [من أصول التاريخ] .

* أول ما خلق من الزمان الليل ثم النهار ثم الشمس ثم القمر فجعل الشمس ضياء والقمر نورًا يعنى لأهل الدنيا ، وأما الآخرة فليس فيها شمس ولا قمر ، لأن الجنة نور كلها (كنز الأسرار) .

* أول ما خلق الليل مظلماً وخلق النور فطرد الظلمة إلى حيث شاء الله ثم خلق الشمس والقمر والنهار وليس لله خلق أعظم من الليل والنهار ، وكان يقول بعض الأعيان إذا جاء الليل جاء خلق الله الأعظم . وذكر بعض المفسرين أن الله خلق جوهرتين إحداهما مظلمة والأخرى مضيئة فاستخلص من المضيئة كل نور ، فخلق من نورها النهار ومن الباقى النار واستخلص من الظلمة كل ظلمة فخلق منها الليل وخلق من الباقى الجنة ، فالليل من الجنة والنهار من النار فلذلك كان الأنس بالليل أكثر وهو محل المعراج ، وأنس المحبين ومرآة المشاهدة ومحل التنزلات الربانية وكلها فى الجنة (كنز الأسرار) .

* أول ما خلق الله تعالى النور والظلمة ثم بينهما فجعل الظلمة ليلا وجعل النور نهارًا (السيوطى) .

* أول شىء بناه الله السماء وجد فى التوراة (أوائل السيوطى) .

* أول ما خلق من الحيوان النحلة وآخر ما خلق من الحيوان القرد (ذكره الشيخ الأكبر) .

* أول ما خلق من النبات الكماءة*[1]. (ذكره الشيخ أيضًا).

* أول ما خلق الله آدم عليه السلام خلقه فى جنة عدن ذكره جمهور العلماء وقيل فى سماء الدنيا وقيل غير ذلك والأول أصح . وكان بين خلقه ونفخ

* (١) سبب ينقض الارض فيخرج منها مخرج الفطر.

الروح فيه أربع جمع من جمع الآخرة ، وعن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما لما خلق الله تعالى الجنة وأسكن فيها آدم بقى فيها وحده وما كان معه من يأنس به فيها ، فألقى الله تعالى عليه النوم ثم أخذ ضلعًا من أضلاعه من الجانب الأيسر ووضع مكانه لحماً فخلق حواء منه فلما استيقظ آدم وجدها عند رأسه قاعدة فسألها من أنت قالت : إنى امرأة قال : لم خلقت قالت لتسكن إلىّ وأسكن إليك فقالت له الملائكة : يا آدم ما اسمها قال حواء ، قالوا ولم سميت حواء قال : لأنها خلقت من حى ، قال أهل التاريخ ، وأما عمرها فتسعمائة سنة وسبع وتسعون وقيل وسبع وسبعون (كنز الأسرار) .

* أول من أسكنه الله تعالى الأرض قبل آدم عليه السلام طائفة من الجن خلقهم من مارج من نار وإبليس فيهم ، فنهاهم الله عن سفك دماء البهائم فسفكوا وعدا بعضهم على بعض ، فلما رآهم إبليس لا يقلعون سأل الله تعالى أن يدفعه إلى السماء فصار مع الملائكة يعبد الله تعالى أشد عبادة فأرسل الله تعالى إلى الجن قبيلا من الملائكة فطردوهم إلى أقصى جزائر الدنيا وقتلوا منهم ما شاء الله ، وجعل الله إبليس على سماء الدنيا خازنا فوقع فى صدره كبر فأبى واستكبر فجرى فيه قدر الله تعالى ما حكاه عنه سبحانه من الطرد والكفر قال أهل التفسير إن الجان أبو الجن كما أن الإنسان أبو الإنس وسمى جانًّا لتواريه عن الأعين وفى إبليس ثلاثة أقوال : أنه من الجن ففسق ، أو من الملائكة فمسخ ، أو من الجنانيين فطرد والعياذ بالله (كنز الأسرار) .

* أول ما أهبط من الجنة آدم وحواء ، أهبطا متفرقين فتعارفا بالموضع الذى يسمى عرفات وبتعارفهما أولا فيه سمى بهذه التسمية ، فلما اجتمعا فيه تاق أى اشتاق إلى حواء فغشيها فاشتملت على ذكر وأنثى ، فسمى الذكر قاين والأنثى إقليما ، واختلف فى الذكر الأول ، فذكر الأكثرون أن اسمه قاين ومنهم من قال

قابيل ، وهو الأشهر والأغلب ، وفى الأخبار أن الولد الأول مات ثم الثانى ثم عاش بعدهما ولد ، فأول ولد عاش قابيل (كذا ذكره بعض المحققين توفيقاً وتطبيقاً) .

* أول ما أهبط آدم وحواء من الجنة ، أهبطا متفرقين فتعارفا بالموضع الذى يسمى عرفات ، ونزلت حواء بجدة قرب مكة من الحرم وآدم على جبل الراهون كما مر وعليه الورق الذى خصفه فيبس فذرته الرياح فى بلاد الهند ، فتكونت الروائح الطيبة بأرض الهند من ذلك الورق ولذلك خصت بالعود والقرنفل والمسك وسائر الطيب وأيضًا ذلك الجبل ينبت عليه اليواقيت وفيه الماس وغيره من الجواهر (زبدة التواريخ) .

* أول ما اختار آدم عليه السلام عند عرض الأشياء كلها عليه الخيل ورد فى الخبر ، لما عرض الله تعالى على آدم عليه السلام كل شىء مما خلق قال له : اختر من خلقى ما شئت فاختار الفرس فقيل له أخذت عزك وعز ولدك خالدًا ما خلدوا وباقيًا ما بقوا أبد الآبدين (شفاء الصدور عن ابن عباس رضى الله عنهما) .

* أول ما يكون الجنين فى الرحم يكون فى الشهر الأول فى تدبير زحل ، وفى الثانى فى تدبير المشترى وفى الثالث فى تدبير عطارد حتى يكون فى السابع فى تدبير القمر ، فإن ولد فيه عاش لأن خلقته قد تمت واستوفت طبائع الكواكب وقواها بالتشمس والتنجم ، لأن كمال الوجود بينهما ، وأما الشهر الثامن فيستولى عليه البرد والجمود والضعف فإن ولد فيه مات وأما التاسع فيتولاه المشترى فيكتسب المولود قوة وحرارة وصلاحاً ، فإذا ولد عاش ، فأقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثره أربع سنين (من شرح لامية العجم) .

* أول ما تعلقت به القدرة من عالم الأمر الإلهى الروح وهو المسمى بالروح

المحمدى الكلى تكونت الأرواح منه قبل الأجسام كما أشار ﷺ أنا أبو الأرواح وآدم أبو البشر (تحقيق) اختلف أهل التحقيق فى تعريف الروح يقول الإمام الغزالى ما معنى قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) ، وما معنى عالم الأمر وعالم الخلق ، فقال عالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال ، والجهة والمكان ، والتخير وهو ما لا يدخل تحت المساحة والتقدير ... ، وعالم الخلق عبارة عن كل ما يقع عليه مساحة وتقدير من الأجسام وعوارضها وقال : الروح أمر ربانى وحقيقة ذات الروح أنه قائم بنفسه ليس بعرض ولا جسم ولا هو متحيز ولا يحل المكان والجهة ولا هو متصل بالبدن والعالم ولا منفصل عنه ولا هو داخل فى أجسام العالم : والبدن ولا خارج ، بل الروح نفحة ربانية ولطيفة إنسانية سارية فى عالم البدن سريان التصرف والتدبير من السلطان إلى ممالكه تحت تصرفه وحكمه وقيل : جوهر مجرد غير متحيز ، وقيل : جسم لطيف وراء هيكل المحسوس له هيكل نورانى وجسم روحانى سريانه فيه كالماء فى الورد والنار فى الفحم والسم فى البدن وقيل : سريانه فى البدن تعلق التدبير والتصرف كالشبكة فى يد الصياد والإقليم تحت حكم الملك له جنود من القوى الباطنة والظاهرة مسخرة تحت حكمه بأمر بارئه ومبدعه على خمسة عشر وجها بل أكثر وأصحّ تعريفاته السكوت وتفويض أمره إلى موجده وبارئه من العدم والوقوف عند قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) .

* أول ما نفخ الروح فى آدم فى رأسه فجعل ينظر وهو يخلق وبقيت رجلاه فقال : يارب عجل قبل الليل ورد فى الحديث عن سلمان رضى الله عنه عن النبى ﷺ .

* أول ما قال آدم بعد نفخ الروح الحمد لله رب العالمين وهى أول كلمة جرت على لسانه فقيل له ولهذا خلقت يا آدم ورد فى الحديث الصحيح بمعناه .

* أول حركة صدرت من آدم بعد نفخ الروح العطاس لما سرى الروح فى أعضائه بعد دخوله من الخيشوم وصل إلى الدماغ ، فعطس وحمد الله تعالى فصار التحميد أول سنة بشرية ظهرت على لسان آدم ، فكانت أفضل من الفرد المقابل من الرد للحاق العاطس من تشميت الملائكة ، فلهذا ورد : أفضل القرآن الحمد لله رب العالمين ، فتكلم الأفضل من الملائكة بالأفضل من القرآن ، لأنه قد ورد فى الحديث أفضل القرآن الحمد لله رب العالمين ، فبدأ به أولا وختم به آخرًا ، كما قال تعالى فى أهل الجنة : وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين الآية (قاله بعض المحققين) .

* أول ما خلق الله تعالى من أعضاء الإنسان فرجه ثم قال : هذا أمانتى عندك فلا تضعها إلا فى حقها (أخرجه السيوطى فى الأوائل) .

* أول من سجد حين أمرت الملائكة بالسجود لآدم إسرافيل عليه السلام ، ولذا وكل بالأرواح الإنسانية بالصورة واللوح المحفوظ المتعلق بعالم الإنسان (السيوطى) .

* أول مخلوق على صورة الإنسان قبل خلق البشر إسرافيل فإن الله خلقه على صورة الإنسان وهو أقرب الملائكة إلى الله تعالى ، وفى الحديث النبوى : لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل عليه السلام . قال المحققون كل مخلوق فى مرتبة من صورة وهيئة ظاهرة وباطنة فحسن ، ولكن الإنسان خلق فى أحسن تقويم ، ولم يخلق أجمل منه ولا أحسن ، فتبارك الله أحسن الخالقين . (روضة المعارف) .

* أول من أفشى السلام وبادر بالسلام آدم لما قام على رجليه بعد نفخ الروح ، والتفت يمينًا وشمالا فرأى فى الجنة مجالس الذكر من الملائكة ، فمشى نحو مجلس الذكر ، فهى أول مشية صدرت منه ، ثم استأنس بالذكر

والذاكرين فسمى إنسانًا من الإنس ، فصار السلام سنة ثانية جرت على لسان النبوة . وفى الخبر إنما سمى إنسانًا لأنه نسى ما عهد مع الله تعالى من أكل الشجرة ، ونسى ما وهب من عمره لولده داود عليهما السلام ستين سنة كما ورد فى الأحاديث .

* أول من رد التسليم والترحيم للعاطس الحامد الملائكة على آدم عليه السلام ، فكان ذلك الرد أول الفروض الكفائية على بنى آدم ، فالسنة البشرية من السلام والحمد عند العطاس أفضل من الفرض الملكى من حيث التسبب ، فافهم سر تفضيل آدم عليه السلام وتعليمه الملائكة وتشريعه الأحكام من السنن والفروض (ذكره الإمام النووى) .

* أول حمل حواء عليها السلام حمل خفيف مذكور فى القرآن ، كما قال تعالى : (فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً) الآية قيل فى تفسيرها فلما قرب وضع أول ولد جاءها إبليس فقال : ما هذا الذى فى بطنك ؟ قالت : ما أدرى فقال : أخاف أن تكون بهيمة ، أو قال : أخاف ألا يعيش كما ورد فى الخبر ، وإنى من الله بمنزلة وقربة ، فإن دعوت الله وولدت إنسانًا صالحًا أتسمينه باسمى ؟ فقالت : نعم ، وما اسمك ؟ قال : عبد الحرث ، فكذب إبليس وكان اسمه فى الملائكة حارث فخدعها فهو أول خدعة فى الأرض ، كما أنه أول خدعة فى أكل الشجرة فى الجنة أو فى السماء (ذكره أهل التفسير) .

* أول ما يخلق فى الإنسان عند تكونه فى الكون الشهادى حاسة اللمس ، فيدرك بها أجناسًا من الموجودات ، كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، واللمس قاصر عن الألوان ، ثم يخلق له حاسة البصر فيدرك بها الألوان ، وهو يتسع لعالم المحسوسات ، ثم ينفتح السمع فيسمع الأصوات ، ثم يخلق الذوق ثم يخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين ، ولذا أشار النبى ﷺ : مروا

صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعًا ، ثم يترقى إلى طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات فيصير مكلفًا بعد عشر سنين ، فيقبل التأديب والتكليف ، ولذا قال : واضربوهم إذا بلغوا عشرًا فافهم سر التشريع النبوى (ذكره الغزالى فى القسطاس) .

* أول تكوين فى الأرض المعادن ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان وهو آخر مخلوق . (الشيخ الأكبر أيضاً) .

* أول بيت بنى الكعبة ، قال تعالى : (إن أول بيت وضع للناس للّذى ببكة) وفى حديث أبى ذر قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أولا ؟ قال المسجد الحرام ، قال الحسن رضى الله عنه إنه أول مسجد عبد الله تعالى فيه فى الأرض ، بعث الله جبريل إلى آدم عليه السلام فأمره ببناء الكعبة فبناه آدم ، ثم أمر بالطواف به ، وقبل له أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس . (السيوطى) .

* أول جبل وضعه الله على الأرض جبل أبى قبيس ثم مدت منه الجبال . (الحديث للسيوطى) .

* أول من وضع مقام إبراهيم للناس بعد الطوفان إلياس بن مضر ولم تزل العرب تعظمه ومضر كان يسمع تلبية النبى ﷺ من صلبه (من تاريخ مكة) .

* أول بيت وضع للعبادة والبركة الكعبة ، قال على رضى الله عنه وابن عباس رضى الله عنهما : هو أوّل بيت وضع فى الأرض ، بناه آدم عليه السلام ، وعن قتادة والحسن كان قبله بيوت كثيرة ، ولكنه أول بيت وضع للعبادة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذا البيت أحد خمسة عشر بيتاً ، فى كل سماء بيت وفى كل أرض بيت بعضها مقابل بعض ، ولكل بيت زُوَّار بل ابن عباس يزوره مثلى ، قال الحسن بن على رضى الله عنهما : إن الله بعيث

ملائكة فقال ابنوا لى بيتًا فى الأرض بمثال البيت المعمور وقدره ، وأمر أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور ، قال : وهذا كان قبل آدم عليه السلام ، واتفقوا على أنه أول بيت وضع للعبادة ، وإنما اختلفوا هل هو أول بيت قال الإمام الغورى قول الجمهور أنه أول بيت وضع مطلقاً (تاريخ مكة) .

* أول قرية بنيت على وجه الأرض قرية ثمانين ، بناها نوح عليه السلام لما خرج من السفينة، وسميت باسم الثمانين الذين كانوا معه فى السفينة، كانوا سريانيّين وهو منسوب إلى سورية وهى أرض الجزيرة، وكان نوح وقومه قبل الغرق فيها ، وكان لسانهم سريانيًّا إلا رجلا واحدًا يقال له جرهم فكان لسانه العربى (أوائل السيوطى) .

* أول ما نزل نوح عليه السلام من السفينة على جبل يقال له الجودى بقرب الموصل ودجلة ، نزل ومعه أولاده سام وحام ويافث وبناته الثلاث وأزواج أولاده وأربعون رجلا وأربعون امرأة ، فابتنوا مدينة الثمانين وقطع نسل هؤلاء الثمانين ، وجعل الله نسل الخلائق من نوح عليه السلام ومن أولاده الثلاثة ، كما أخبر تعالى : (وجعلنا ذريته هم الباقين) ، ثم تفرَّق نسله وقسم الأرض بينهم وعاش نوح عليه السلام بعد الطوفان ثلثمائة وخمسين سنة وجميع عمره الشريف وهو الجد الثانى تسعمائة وخمسون سنة (أصول التواريخ) .

* أول حائط على وجه الأرض حائط حران ودمشق ثم بابل ، لما هبط نوح عليه السلام من السفينة أشرف من تل حران فأتى حران فخطها ثم أتى دمشق فخطها فكانت حران أول مدينة خطت بعد الطوفان ثم دمشق (أوائل السيوطى) .

* أول مدينة مدنت فى زمن الصحابة رضى الله عنهم البصرة ، وهى مدينة عربية بنيت فى خلافته لم يعبد فيها صنم ولم يبن بها كنيسة كان بها سبعة آلاف مسجد (مسالك الممالك وعجائب البلدان) .

* أول مدينة مدنت بعد البصرة فى الإسلام الكوفة يقال لها العلوية ، مدنها سيدنا على رضى الله عنه ، وفيها مشهد عظيم يقال فيه إمامنا على رضى الله عنه مع جم غفير رضى الله عنهم (عجائب البلدان) .

* أول موضع أهبط الله فيه آدم جبل يسمى الراهون فى جزيرة من جزائر الهند فى مملكة سرنديب بمكان يقال له الدهناء ، وعليه أثر قدمه عليه السلام وعلى القدم نور طاغ يخطف البصر لا يتمكن أحد أن ينظر إليه ، طول قدمه فى الصخر سبعون شبراً وعلى الجبل ضوء كالبرق ، ولابد لكل يوم فيه من المطر يغسل قدمه ، وإن آدم خطا من هذا الجبل إلى ساحل البحر خطوة واحدة وهى مسيرة يومين ، فلما أهبط خرَّ ساجدًا على صخرة بيت المقدس ، وكان يمسح رأسه الشريف السحاب وكان يشرب من السحاب ، وكان طوله خمسمائة ذراع والله أعلم ، بأى ذراع ثم تضلع ستين ذراعًا وعلى هذه الصورة المقدرة المعينة يدخل أهل الجنة مقامهم الموعود فى طول أبيهم آدم عليه السلام ، وهو أول من تضلع فى الدنيا وعاش ألف سنة . قال ابن عباس وقيل إلا ستين عامًا التى كان وهبها لابنه خليفة الله داود عليهما السلام . ومات يوم الجمعة آخر النهار فى الساعة التى خلق فيها والتى أخرج فيها من الجنة ، فلما مات نزلت الملائكة مع أكفانه ولوازمه من التجهيز ، وصلى عليه ابنه الوصى شيث بأمر جبريل عليهم السلام ، وأمره أن يكبر عليه ثلاثين تكبيرة ، وقيل أربعًا ، وفى الخبر صلى عليه شيث مع الملائكة بعدد كل صلاة تصلى على كل مسلم من أولاده الموتى إلى يوم القيامة ودفنه فى غار جبل أبى قبيس ، وهو أول جبل خلق فى الأرض ولهذا السر دفن فيه ، ثم أخرج نوح تابوته زمن الطوفان وحمله فى السفينة ثم أعاده إلى مكانه . وذكر أهل التاريخ فى تاريخ مكة شرفها الله أن نوحًا دفنه بعد الطوفان بمنى فى مسجد الخيف قبل سرته الشريفة تحت المنارة التى فوق الباب

الكبير اليوم سنة سبع وتسعين وتسعمائة . . وردت على مبشرة فى ذلك المكان الشريف ورأسى على عتبة الباب الكبير ليلة من الليالى مدة مجاورتى سنة ثلاث وثمانين خرجت ليلة مع بعض الإخوان من الفقراء المجاورين إلى منى ونمنا قدام باب المسجد فرأيت فيما يرى النائم كأنى أتكلم مع أبى ﷺ تارة فاستيقظت وأنا هائم وجل قائلا بأعلى الصوت السلام عليك يا صفى الله السلام عليك يا آدم ، فتعجبت رفقائى الذين كانوا معى من ذلك وقالوا قد صح واشتهر عند بعض المؤرخين من الثقات كشفا ونقلا أن عنصره الشريف وجسمه اللطيف فى المحل المذكور والله أعلم .

كيف وجد الإنسان ؟

إن الإنسان بما غرز فى طبيعته من قوى النظر والاستقراء والاستنتاج ، كلف منذ وجوده على هذه الأرض بفهم سر الوجود الذى يعيش فيه ، وإدراك ذاته المفكرة ومصيرها . فهو الكائن الأرضى الوحيد الذى شغلت باله هذه المسائل الضخمة واستهوته حلولها المختلفة .

إن الإجابة على ما سبق فى نظر البعض ، تختلف بين الدين والعلم ، وبين دين وآخر ، وبين عالم وآخر .

خلاصة ما ورد فى الأديان

تذكر الأديان أن آدم أبو البشر وأن الله خلقه من طين وعلمه الأسماء كلها وأن آدم وحواء أهبطا إلى هذه الأرض من الجنة . بدليل قوله تعالى لآدم وحواء (اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو) (١٢٣ طه) . ويختلف المفسرون فى

الجنة المذكورة . يقول أئمة الإسلام إنها فى السماء ، وإن الجنة المقصودة هى جنة الخلد ، والخلد ليس للأرض ولا لشىء مما عليها . وتقول التوراة إن الجنة التى أسكن الله فيها آدم وحواء على الأرض ، وإنها على مقربة من عدن ، ولذلك سميت جنة عدن . وتروى الكتب المقدسة ما حدث بعد هبوط آدم وحواء على الأرض وقصة قابيل وهابيل ، وطوفان نوح وغرق كل من على الأرض إلا من أسكنهم نوح فلكه ، وأن الحياة بدأت تعود إلى الأرض بعد انحسار الطوفان .. بدأ النبات ينمو ، وبدأ تناسل الحيوان والإنسان ، وبدأ عصر جديد من عصور التاريخ الإنسانى .

قصة الإنسان من الحفريات(٥)

يقول رالف لنتون فى كتابه شجرة الحضارة الجزء الأول :

« إذا استثنينا بعض المناطق النائية فى مواقعها الجغرافية أو المتأخرة فى حضارتها ، فليس هناك من يشك فى أننا من نسل نوع من أنواع الحيوان ، والمشكلتان الرئيسيتان هما تحديد نوع الحيوان ، ثم معرفة الطريق الذى سار فيه التطور الإنسانى . وبهذه المناسبة يمكننا أن ننبذ فى الحال أحد الأخطاء الشائعة بين الناس . فمن المؤكد أن الإنسان لم يتناسل من أى نوع من أنواع القردة العليا التى مازالت باقية حتى الآن . فهذه القردة ليست أجدادنا ولكنها أبناء عمومتنا الذين افترق فرع أصولهم عن فرعنا منذ مليون سنة على الأقل » .

---

(٥) من كتاب شجرة الحضارة (قصة الإنسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث تأليف رالف لنتون أستاذ الدراسات الإنثروبولوجية بجامعة ييل - ترجمة دكتور أحمد فخرى الأنجلو المصرية .

وفى محاولتنا معرفة ما كان عليه أجداد الإنسان نرانا مضطرين للاعتماد على الأدلة المستقاة من بعض حفريات (fossils) ولكن يحد من قوة تلك الأدلة ما نعرفه عن عمليات التطور ، والصورة الواضحة التى نعرفها عن نظام تطور الرئيسيات بوجه عام . ويالينتا نحصل على حفريات من بقايا الإنسان المبكر أو من حفريات أشباه الإنسان أكثر مما لدينا الآن . إذ يلوح أنه لن نحصل على كثير منها فى يوم من الأيام .

فإلى وقت حديث جدًّا بل بعبارة أدق حتى الوقت الذى بدأ فيه الإنسان يتعلم إنتاجه لغذائه كان ذلك الإنسان نوعاً من الكائنات نادر الوجود نسبيًّا . أما أجدادنا من أشباه الإنسان فكانوا أكثر ندرة لأنهم لم يكونوا مهيئين لاستغلال بيئتهم كما كان يفعل أوائل الناس الحقيقيين ، لأن كل فرد كان يحتاج إلى خمسين ميلا مربعًا لتقوم بأوده ، وهذا تقدير متواضع حتى فى المناطق الملائمة . وفضلا عن ذلك فإن تحول العظام إلى حفريات يتطلب ظروفاً خاصة فإن الجسد الذى يترك ملقى فى العراء يصبح بدوره عنصرًا اقتصاديًّا يضاف إلى ما تقدمه الطبيعة إذ تتولى أمر ذلك الجسد الجوارح من الصقور وأبناء آوى وجميع أنواع أكلة الرمم ، حتى البكتريا التى تتغذى على الدم وعلى نخاع العظام ، والقوارض التى تأتى فى النهاية على تلك العظام لأجل ما تحويه من الهلام (الجيلاتين) والجير . فإذا كان لهيكل عظمى أن يظل محفوظاً فيجب أن يغطى وألاَّ يترك عاريًا . ومعظم ما وصل إلينا من حفريات الحيوانات التى عاشت على الأرض ، ليست إلا بقايا لبعضها . وهى التى سقطت فى مستنقعات ، أو غاصت فى رمال متحركة أو غرقت فى أنهار واستقرت فى مياه راكدة حيث رسبت العظام فى القاع ، ودفنت فيه حتى أسلافنا من أشباه الإنسان ، فمن المحتمل أنهم دفنوا فى المستنقعات أو الرمال المتحركة ولكن بنسبة أقل ممن كانوا يعيشون معهم فى

المكان نفسه من الحيوانات التى كانت أكبر حجماً منهم وأقل ذكاء ، على حين كانت الرئيسيات بوجه عام تتحاشى النزول إلى الماء ولا تميل إليه أبدًا . وقد عثر على عدد قليل نسبيًّا من حفريات الحيوانات الثديية فى الكهوف ، ولكن الكهوف لا توجد إلا فى جهات قليلة ، وفى الوقت الذى كان فيه الإنسان قد أخذ يتطور كانت تقطنها ضوارٍ مؤذية كبيرة الحجم من أكلة اللحوم .

ولكن بالرغم من كل تلك المصاعب فقد عثر على عدد لا بأس به من الحفريات الإنسانية وحفريات ما نسميه طلائع الإنسانSub Humanوليست هناك فائدة كبيرة من وراء محاولة وصف تلك الحفريات بالتفصيل ، وذلك لأنه لا تمضى بضعة شهور حتى يكتشف شيء جديد منها ، فإذا ما كتبنا أى بيان بها فإن هذا البيان سيصبح بيانا ناقصًا عند الانتهاء من طبع هذا الكتاب ووصوله إلى أيدى القراء .

والأهمية الرئيسية لتلك الحفريات هى أنها توضح لنا اتجاه التطور الإنسانى . إنها نقط على خط السير التطورى ومع تنقل البصر من واحدة إلى الأخرى يمكننا أن نمد هذا الخط التطورى من مرحلتنا الإنسانية راجعين إلى الوراء نحو الماضى البعيد ، فإذا ما أردنا أن نمد هذا الخط من أنفسنا نحو المستقبل تصبح المشكلة أكثر صعوبة لأنه فى خلال نصف المليون سنة الأخيرة تمكن نوعنا الإنسانى من عمل كل الملاءمات اللازمة باستخدام ذهنه بدلا من استخدامه لجراثيم الوراثة (الجينات genes وكان هذا التغيير سببًا فى ظهور كثير من هذه التغييرات الجديدة فى مظهر التطور مما يجعل أى تنبؤ بما سيحدث فى المستقبل ضربًا من ضروب التخمين .

ويتضح من جميع ما وقفنا عليه من معلومات حتى الآن أن أجدادنا

البعيدين كانوا قردة مذنبين ، ويستطيع من يغضبهم هذا القول[٦] أن يجدوا بعض العزاء ، إذا أكدنا لهم أن مؤسسى فرع عائلتنا البشرية قد تلقوا تعليمهم فى أعلى فروع الأشجار . كانوا فى الغالب حيوانات صغيرة الحجم ، تتراكض فوق فروع الأشجار على قوائمها الأربع كما تفعل القردة الحديثة وتثب من غصن إلى غصن ، وقد بسطت ذراعيها ورجليها على استعداد لتقبض على أى شىء بأى واحدة من اليدين والقدمين . وبالرغم من أنه يرجح أنها كانت ذات ذنب فإنها لم تستخدمه فى أرجحة نفسها . فإن أرجحة القردة بوساطة ذيولها خاص بقردة الدنيا الجديدة ، وهى بعيدة عن الفرع الذى انحدرت منه العائلة البشرية فإذا قرأت فى أى وقت من الأوقات كتابا من كتب الأسفار يذكر فيه مؤلفه أنه رأى قردة أفريقية أو آسيوية تفعل ذلك فمن حقك أن تنقل ذلك الكتاب من بين كتب الأسفار إلى قائمة القصص الخيالية .

وكانت أولى الخطوات للوصول إلى مرتبة الإنسان هى الخطوة التى بدأت عندها تلك الحيوانات الصغيرة الحجم تتخذ طريقة جديدة فى تنقلاتها . فبدلا من أن تثب من غصن إلى غصن بدأت تطرح نفسها من واحد إلى آخر كما يفعل أحد الرياضيين بحلقات (العقلة) . ونتج عن ذلك تغييرات مهمة فى الجسم كانت بكل تأكيد الأساس لأكثر التطورات التى ظهرت فيما بعد فى تركيب الجسم الإنسانى ، فعند الأرجحة من غصن إلى غصن يتعلق الجسم من الذراعين ، وبهذا يكون فى حالة تختلف تمام الاختلاف عن الحالة التى يكون عليها جسم الحيوانات التى تمشى على أربع ، وقد نجم عن ذلك سلسلة من

---

(٦) نحن ممن يغضبهم هذا القول وقد عرضناه فقط لبيان مدى التضارب فى النظر إلى مسألة الخلق عند بعض علماء الغرب.. ونحن لا نؤمن إلا بما جاء فى القرآن (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم). الآية (التين).

التعديلات فى تركيب الجسم ، إذ أصبحت القامة أقصر من ذى قبل . وأكثر اكتنازاً ليتيسر تأرجحها مسافات طويلة وهى متعلقة بالذراعين مثل جسم ثقيل معلق فى نهاية خيط . كانت الأحشاء ثابتة فى أماكنها بوساطة عضلات البطن التى تشبه خيط (المقلاع) فأخذ الحوض على عاتقه القيام بمهمة حمل الأحشاء ، وأصبح أعمق مما كان قبل ذلك وأكثر استدارة . أما مفاصل الكتف التى لم يكن لها من قبل إلا قدرة محدودة على الدوران الحر ، كما نرى ذلك فى القردة فى الوقت الحالى ، فقد أصبحت أكثر ليونة حتى صار لها هذا النوع من المفاصل التى تجعل فى مقدور الإنسان فى الوقت الحالى رمى الكرة كما نرى فى لعبة كرة (البيزبول). انتهى كلام رالف لنتون.

تعليق على رأى رالف لنتون

وهكذا عزيزى القارئ يؤكد كتاب الغرب ما سبق أن قلناه بدءًا من أن الإنسان لا يعرف نفسه مع أنها أقرب الأشياء إليه .. فقد تدلى به فكره كما رأينا فى كتاب شجرة الحضارة حتى رضى لنفسه أن ينحدر من سلالة القرود ثم راح يلتمس من التحليلات ما يحاول به أن يؤكد صحة رأيه هذا .. تعصبا وجهلا ..

ونحن نلتمس العذر لرالف لنتون وغيره ممن أخطئوا الطريق .. ذلك أنهم ممن جرفتهم الحياة المادية فباتوا يتصورون الإنسان مجرد مخلوق شائه حفيدًا للقردة ولم يفتح الله عليهم بما فتح به علينا حين هدانا للقرآن نلتمس فيه النور ونعرف منه الفرق بين الحق والباطل .

(أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) ... (١٢٢ الأنعام) .

كلا يارب .. لسنا ورالف لنتون فى هذا سواء ..

وسوف يرى القارئ فيما سنطرحه عليه عن حقيقة الإنسان فى هذا الكتاب وما يليه من السلسلة ما يدفع هذا الباطل الذى سقط فى بئره كثيرون غير رالف لنتون من أشهرهم شارل دارون صاحب نظرية التطور.

نظرية دارون(٧)

يدعى دارون أن الإنسان تطور من سلالات حيوانية سبقته كانت القرود آخرها ، فقد قدم دارون رسالة لجيله ورد فيها مايأتى :

« حسبكم أن تدرسوا الطريقة التى تنشئ بها الطبيعة وينشئ بها الإنسان صورًا جديدة من الكائنات الحية فى عالم اليوم ، ليكون لكم من هذا تفسير معقول للطريقة التى بلغت بها الأرض فى غضون تاريخها الماضى الطويل . هذا التعدد العظيم فى نباتها وحيوانها وإنسانها ولغاتها البشرية .. » الخلاصة أن دارون سعى إلى إقناع النوع البشرى بأن جنة عدن مازالت باقية وأننا نحن المقيمين فيها لا نزال قادرين على دراسة طريقة الخلق والرد على السؤال الخاص بكيفية وجود السلالات البشرية .

ويقرر دارون أنه لا يوجد من بين من يعيشون على الأرض من الرجال والنساء والأطفال اثنان متشابهان تشابهاً كليًا ولا تستطيع الطبيعة أن تخرج صورة

---

(٧) شارل دارون (١٨٠٩/١٨٨٢) ولد فى مدينة شوسبرى واهتم بالصيد والكلاب حتى قال له والده يوما : ستكون عاراً على عائلتك وعلى نفسك ولم يفلح فى تعلم الطب فانتقل إلى كمبردج واهتم بالحشرات وتعرف بالعالم النباتى هنسلو واستقر أخيرًا فى مدينة دارون قرب لندن .

طبق الأصل من أى كائن حى ، وكل ميلاد جديد هو تجربة جديدة فى الخلق .

جعل تشارلز دارون من هذه الحقيقة دعامة تستند إليها نظريته فى التطور كما استند إلى دعامة ثانية هى عامل المنافسة ، فعالم الأحياء يسير على سنة من التنافس لا تتبدل ، وأن جميع الكائنات الحية تنقرض ما عدا الصالح منها للبقاء .

وخرج دارون[٨] من هذا كله أن التطور أو الخلق مازال مستمرًّا فى عالم الإنسان لأن كل طفل يولد فى العالم يحمل معه مجموعة جديدة من السمات الجثمانية والصفات العقلية ، وأن بعض هذه السمات والصفات يرفع من شأن أصحابه ويؤهلهم للفوز فى الكفاح المستمر ، وبعض الصفات يحط من شأن أصحابه، حتى مال من يتصف به إلى الانقراض .

تعليق على رأى دارون

جاء العلم بأكثر من دليل على فساد نظرية التطور ، فالعلم الحديث الذى أشرق على العالم منذ ثلاثة قرون كشف عن عجيب ما صنع الصانع ، كشفه فى

---

(٨) من أهم مؤلفاته الكتب الآتية :

أصل الأنواع – تسلسل الإنسان ومظهر التأثيرات فى الإنسان والحيوان . وتدور فلسفته حول مذهب التطور وقد استعار بعض أفكاره عن فيلسوف طبيعى فرنسى هو (لامارك) . وتتلخص نظريته فيما يأتى :

جميع الأنواع الحيوانية والنباتية الماضية والحالية متسلسلة بطريقة التطور والتعاقب من ثلاثة أو أربعة أصول ، وربما كانت من أصل واحد إذ يقول : (إن المقارنة تذهب بى إلى أبعد من ذلك أى إلى الاعتقاد بأن جميع الحيواناتُ وجميع النباتات تسلسلت من أصل واحد » .

والنوع الإنسانى لم يسلم بحسب نظرية دارون من قانون التطور فهو متسلسل من قرد وسار فى سبيل الارتقاء إلى أن صار كما هو الآن .

بيد أن دارون قرر أنه لا يبحث عن مصدر القوة العقلية .

النبات وهو صنوف لا عداد لها ، وكشفه فى الحيوان وهو أجناس لا حصر لها ، وكشفه فى الإنسان أسمى المخلوقات وأرقاها .

وبرغم ما أثبته العلم الحديث فما زالت هناك فئة ضالة تقول بالخلق والتخلق ، ومن هذه البقية الإنجليزى جوليان هكسلى الذى ألف كتابًا أسماه الإنسان يقوم وحده Man Stands Alone وهو فى ذلك يسير على درب سار عليه جده من قديم فجده توماس هكسلى (١٨٢٥ /١٨٩٥) صاحب دارون وناصره فى القرن الماضى - وقد انبرى لهذا العالم الضال عالم آخر هو كريس موريسون الذى ألف كتاباً أسماه الإنسان لا يقوم وحده Man Does Not Stand Alone أراد بذلك أن يقول إن الإنسان يقوم فى هذه الدنيا ومعه الله . وقد أثبت هذا العالم بأدلة علمية قاطعة فساد الرأى القائل بالخلق والتخلق . وحسبنا أن نذكر ردّ موريسون على هكسلى لما لذلك من مغزى . وكفى .

هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء) (٢٩ البقرة)

اختص الله سبحانه الإنسان بالرعاية والعناية فأفرد لبيان خلقه العديد من الآيات فى كتابه الكريم .

والقرآن يعلمنا أن الله قد سخر للإنسان هذا الكون ويسر له الانتفاع به وأخضع له ما فيه من الأرض والسماء وما بينهما[٩] . فما هى قصة هذا الخلق كصفحة فى كتاب خلق الإنسان (الخليفة) ؟ .

إن أول ما خلق الله هو القلم ثم أمره بأن يكتب ما هو كائن وأنه سبحانه خلق الأرض قبل السماء (ثم السجدة) ولكن قول قتادة : أن السماء خلقت

(٩) فى تفسير القرطبى جـ ١ (سورة البقرة ص ٢١٨ وما بعدها) .

قبل الأرض (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها) (٢٧ النازعات) ثم قال (والأرض بعد ذلك دحاها) (٣٠ النازعات) وقال مجاهد وغيره من المفسرين : إنه تعالى أيبس الماء الذى كان عرشه عليه فجعله أرضًا وثار منه دخان فارتفع فجعله سماء ، فصار خلق الأرض قبل خلق السماء ثم قصد أمره إلى السماء فسواهن سبع سماوات ثم دحا الأرض بعد ذلك من مكة .. وكانت إذ خلقها غير مدحوة وقول قتادة يخرج على وجه صحيح إن شاء الله تعالى وهو أن الله تعالى خلق أولا دخان السماء ثم خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وهى دخان فسواها ثم الأرض بعد ذلك دحاها .

ومما يدل على أن الدخان خلق أولا قبل الأرض ما رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمذانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى قوله عز وجل :

(هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) (٢٩ البقرة) قال إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين (الأحد والإثنين) فتزلزلت الأرض فأرسل عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الأرض (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) (١٥ النحل) وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين (الثلاثاء والأربعاء) .. (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين) (٩ و١٠ فصلت) .

يقول : من سأل فهكذا الأمر (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) (١١

فصلت) وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين (الخميس والجمعة) وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض (وأوحى فى كل سماء أمرها) (١٢ فصلت) قال : خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد ومالا نعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً تحفظ الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش ، قال : فذلك حين يقول : (خلق السموات والأرض فى ستة أيام) (٥٤ الأعراف) ويقول : (كانتا رتقا ففتقناهما) (٣٠ الأنبياء) .

أيام الخلق الستة

أيام أو مراحل[١٠]

إن كلمة يوم كما يفهم من التوراة تعرف المسافة الزمنية بين إشراقين متواليين للشمس أو غروبين متواليين وذلك بالنسبة لسكان الأرض . وإن اليوم وقد تحدد بهذا المعنى يرتبط وظيفيا بدوران الأرض حول نفسها .. وواضح تمامًا أنه من المستحيل منطقيًا أن نتحدث عن الأيام بهذا المعنى الذى تحدده على حين أن العملية المركبة التى ستؤدى إلى ظهورها أى الأرض ودورانها حول الشمس ، لم تكن قد أنشئت بعد عند أولى مراحل الخلق وذلك بحسب رواية التوراة .

أما إذا رجعنا إلى غالبية ترجمات القرآن فإننا نقرأ فيها – بالتجانس مع ما

---

(١٠) راجع كتاب المؤلف الفرنسى (موريس بوكاى) بعنوان La Bible. Le Coran et La Science الذى ترجم إلى العربية وطبع على نفقة الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز – طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٧.

تعلمنا التوراة به – إن القرآن يقول هو أيضًا بامتداد عملية الخلق على مدة ستة أيام ولا يمكن بالطبع أن نعتب على المترجمين أنهم قد ترجموا كلمة يوم بالكلمة المعادلة لأكثر المعانى شيوعًا للكلمة العربية . وهكذا تعبر عنها الترجمات عادة مادمنا نقرأ فى سورة الأعراف الآية ٥٤ (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) .

وقليلة حقًّا ترجمات القرآن أو التعليقات التى تنبه إلى أن كلمة أيام ، فى الواقع ، يجب أن تفهم على أنها تعنى (مراحل) بل لقد ادعى البعض القول بأنه إذا كانت نصوص القرآن الخاصة بالخلق قد قسمت مراحل الخلق فى أيام فقد كان ذلك يهدف عن قصد إلى استئناف ما كان الكل من يهود ومسيحيين فى فجر الإسلام يعتقد به وذلك تجنبًا لمجابهة اعتقاد منتشر.

الواقع ودون أى رفض مطلق لهذه الطريقة فى الرؤية ، ألا يمكن أن نرى المشكلة عن قرب أكثر وأن تفحص المعانى الممكنة فى القرآن نفسه وفى لغة العصر عامة لتلك الكلمة التى يستمر عدد من المعلقين فى ترجمتها بيوم . (الجمع أيام) .

إن الكلمة مفردة تنحو إلى الدلالة على النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين غروب الشمس وغروبها فى اليوم التالى . أما إذا جمعت فلا تعنى فقط أيام أى وحدات تتكون كل منها من أربعة وعشرين ساعة ، بل تعنى أيضاً دهرًا طويلا أو فترة من الزمن غير محدودة وإن طالت . ومن ناحية أخرى فمعنى فترة زمنية التى يمكن للكلمة أن تدل عليه موجود أيضًا فى القرآن .

ففى الآية ٥ من سورة السجدة : (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الآية السابقة على هذه الآية تذكر بالتحديد

الخلق فى ستة أيام . كذلك نجد فى الآية ٤ من سورة المعارج : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

وكون أن كلمة يوم كان يمكن أن تدل على فترة زمنية تختلف تمامًا عن تلك التى نعطيها لمعنى اليوم قد بهر كثيرًا من المفكرين القدامى الذين كانوا لا يملكون بالطبع أى معارف من تلك التى نملكها اليوم عن عدة مراحل تكون الكون . وفى القرن السادس عشر الميلادى ظن (أبو السعود) – بالاستناد إلى دورة الأرض – أن من الواجب تصور تقسيم (مراحل) ليس إلى أيام بالمعنى الذى نفهم عادة بل إلى (نوبات) .

ومن المفسرين المحدثين (يوسف على) سنة ١٩٣٤ فى تفسيره لكل آية تعالج مراحل الخلق يصر على ضرورة اعتبار أن الكلمات التى تفسر فى سياق آخر بمعنى أيام تفسر هنا فى الواقع بمعنى (فترات طويلة) ، أو (عصور) .

وقد أثبت العلم الحديث بشكل قاطع أن مراحل الخلق هذه فترات زمنية طويلة جدًا .. وهو أمر لا يناقض الآيات التى يتحدد فيها الخلق بستة أيام إذا ما نحن أدركنا أن الآية ٥ من سورة السجدة :

تذكر (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) . كذلك فإن الآية ٤ من سورة المعارج تذكر : (... فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

ولنا أن ننبه إلى أن التوراة تقول إن الله خلق الخلق فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع من بعد العمل وأن على كل يهودى أن يجعل يوم السبت يوم الراحة .. ولكن الآية ٣٨ من سورة (ق) ترد على ذلك ردًا واضحًا حيث يقول سبحانه وتعالى :

(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من

لغوب) ، (اللغوب : التعب والنصب) فالقرآن يعلمنا فيما يتعلق بالخلق أن هناك نقاطاً هامة هى :

١ – وجود ست مراحل للخلق عمومًا .

٢ – تداخل مراحل خلق السموات مع مراحل خلق الأرض .

٣ – خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تفصلت بعد ذلك .

٤ – تعدد السموات وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٥ – وجود خلق وسيط بين السموات والأرض .

وبعد أن يعرض موريس بوكاى بعض معطيات العلم الحديث عن تكوين الكون (النظام الشمسى – المجرات – تكوين وتطور المجرات والنجوم والنظم الكوكبية – مفهوم تعدد العوالم) .. إلخ يقول : « .. فإنه لا يوجد على أى حال أقل تعارض بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون . ذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن ، على حين قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم الذى نملك اليوم قد أعطى عن هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية » .

كذلك يتحدث المؤلف الفرنسى عن علم الفلك فى القرآن فيقول :

« ... إن الإشارات التى وردت فى القرآن من علم الفلك منذ حوالى أربعة عشر قرنًا هى حدث جديد فى التنزيل الإلهى فلا الإنجيل ولا العهد القديم يعالجان ترتيب الكون (باستثناء المفاهيم التى رأينا مجموع عدم صحتها فى رواية التوراة عن الخلق) . أما القرآن فهو ينظر طويلا فى هذا الموضوع ، فما يحتويه هام ، ومالا يحتويه هام أيضًا » . ثم يستطرد فيقول :

وعلى حين وصفت التوراة الشمس والقمر بمنيرين مضيفة صفة الكبر إلى الأولى والصغر إلى الثانى يخص القرآن كلا منهما بفروق غير تلك التى تتعلق بالحجم فيصف الشمس بأنها سراج وهاج والقمر بأنه جرم منير أى أنه ليس مضيئًا بذاته بل هو يعكس الضوء الذى يستقبله من الشمس كما أنه كوكب خامل (ذلك على الأقل بالنسبة لقشرته الخارجية) . لا شىء إذن فى القرآن يناقض كل ما نعرف اليوم عن هذين الجرمين السماويين .

وبعد .. هذا بعض ما رأينا توضيحه فى هذا الصدد ، ولو أننا لا نود أن نسترسل مع بوكاى فى تفصيلاته مع النجوم والكواكب والسماء الدنيا والبنية السماوية ومدارى الشمس والقمر وتنقلهما فى الفضاء ، وتعاقب النهار والليل وتوسع الكون وغزو الفضاء ودورة الماء والبحار وتضاريس الأرض والجو الأرضى والكهرباء الجويَّة والظل ... إلخ) حتى لا ينحرف بنا المدار عن فلك حقيقة الإنسان وإنما أردنا بهذه الإشارات التمهيد بوصف خلق الكون الذى وجد الإنسان عليه ليعمره ويسخره لنفعه . ولذا نقف عند هذا الحد حيث يأتى مقام ذكر قصة آدم أبو البشر أو خلق الإنسان .